

نشأة النحو العربي

Muhammad Afthon Ulin Nuha
Institut Abdul Chalim Mojokerto
Email : jumbanji@gmail.com

الملخص: هذه المقالة تحت العنوان "نشأة النحو العربي". يركز بحث هذه المقالة في (١) مفهوم النحو العربي وأهميته؛ (٢) حالة اللغة العربية قبل نشأة علم النحو؛ (٣) أول واضع علم النحو. للوصول إلى البيانات المطلوبة والدلائل المثبتة في القضية، قا الباحث بإجراء البحث بطرائق لازمة في الدراسات المكتبية وهي المنهج الاستقرائي والمنهج الاستدلالي والمنهج البياني. تدرك البيانات والمعلومات من مصادرها وهي المواد المكتوبة في الكتب أو النسخ أو المقالات. ترجى نتيجة هذا البحث أن تعطي صورة واقعية عن الموضوع الذي يبحث عنه. والنتيجة من هذا البحث تظهر أن النحو من أهم العلوم العربية لأنه يمس جوانب مهمة في اللغة العربية. احتاجت اللغة العربية إلى النحو لأن له وظائف مهمة في حفظ سلامتها من الفساد والاضطراب، بجانب إنه يساعد القراء في فهم النصوص المقرؤة، ويعين المتكلم في تعبير الكلام الصحيح، ويعين الكتاب للوصول إلى الكتابة الصحيحة، وقبل ظهور علم النحو كانت حالة اللغة العربية عاشت عيشة قوية، ولم تحتج إلى قواعد تحتفظ بها. وذلك لأن العرب يتكلمون بلغتهم قائمة على الفطرة السالمة والسليقة المستقيمة. كان المؤرخون لا يتفوقون في أول واضع النحو، وذلك لأن هذا العلم قديم النشأة، والروايات الواردة إلينا متضاربة، غير أن هناك الرأي الأرجح القائل أن أول واضع النحو هو أبو الأسود الدؤلي تحت إرشاد الإمام علي رضي الله عنه.

الكلمات الرئيسية : النحو، اللغة العربية، الروايات

أ. مقدمة

إن النحو يعتبر من أهم العلوم العربية لأنه يمس جوانب مهمة في اللغة العربية. إنه يحوى القواعد التي تتعلق بالإعراب من رفع ونصب وجر وحزم والبناء من أنواع ما يبقى على السكون وعلى الضم وعلى الكسر وعلى الفتح. وبالنحو يعرف صحيح الكلام من خطائه، وكيف أداء اللغة العربية أداء سالما بعيدا عن الفساد والاضطراب. وبه أيضا تعرف وظيفة الكلمات حينما كانت مركبة جملا، فيعرف الفرق بين المبتداء أو الخبر،

وبين الفاعل والمفعول، وبين الفعل المعلوم والمجهول، وبين الجملة الشرطية والاستفهامية، وبين التعجب والنفي وغير ذلك.

وبالجملة كان النحو يلعب دوراها ما في اللغة العربية، إنه آلة للوصول إلى تعبير الكلام الصحيح، وإنه آلة للوصول إلى القراءة الصحيحة وآلة للوصول إلى الفهم المعنى المنصوص. وقد كتب العلماء قديما وحديثا البحوث النحوية في مائات كتاب على اختلاف طريقتها وأتماطها. وما زال طلاب المدارس والمعاهد الاسلامية في العالم الإسلامي منذ قديم إلى اليوم يدرسونها ويبحثون عنها تدريجيا من متنها إلى شرحها ومن صغيرها إلى متوسطها فإلى كبيرها.

وإلى ذلك الحد اهتمام المسلمين والمدارس والمعاهد الإسلامية في دراسة النحو العربي، حتى قيل أن النحو أبو العلم والصرف أم العلم. ومع ذلك كان معظم دارسية قد يجهلون جانبها من جوانبه، وهو ما يتعلق بتاريخ نشأته. فيظهر منه تساؤلات (١) ما هو علم النحو؟؛ (٢) كيف حالة اللغة العربية قبل نشأة النحو؟؛ (٣) من أول واضع النحو؟. لإجابة هذه التساؤلات قام الكاتب بتقديم هذا البحث الوجيز فيما يلي.

ب. مفهوم النحو لغة واصطلاحا

النحو هو علم من علوم اللغة العربية المتعددة. وقد قسم مصطفى الغلاييني العلوم العربية إلى ثلاثة عشر علما وهي: الصرف والإعراب (يجمعهما اسم النحو) والرسم والمعاني والبيان والبديع والعروض والقوافي وقرض الشعر والإنشاء والخطابة وتاريخ الأدب و متن اللغة.^١ والنحو من ناحية اللغة دل على معان مختلفة، وهي:^٢

١. المثل، نحو : خالد نحوك، أي مثلك
 ٢. الجهة، نحو : توجهت نحو القبلة، أي جهة القبلة
 ٣. المقدار، نحو : عندي نحو ألف دينار، أي مقدار ألف دينار
 ٤. الطريق، نحو : كقول علي لأبي الأسود، انح هذا النحو، أي سر هذا الطريق
 ٥. النوع، نحو : علي ثمانية انحاء، أي ثمانية أنواع.
- وقد جمعها بعضهم معنى النحو في نظم:

(قصد ومثل جهة مقدار # قسم وبعض قاله الأخيار)^٣

أما النحو من ناحية الاصطلاح فقد تعددت عبارات النحاة، منها:

١. قال الغلاييني: إنه علم بأصول تعرف بها أحوال الكلمات العربية من حيث الإعراب والبناء أي من حيث ما يعرض لها في حال تركيبها.^٤

^١ مصطفى الغلاييني. جامع الدروس العربية. ج ١ (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٨٤) ط ١٧. ص ٥

^٢ إبراهيم أنيس. معجم الوسيط. ج ٢ (مصر: دار المعارف، ١٩٧٣) ط ٢، ص ٩٠٨

^٣ إبراهيم البيهوجري. فتح رب البرية (سمارانج: مكتبة اوساها كلواركا) ص ٣

^٤ الغلاييني. جامع الدروس. ج ١. ص ٦

٢. السيد أحمد الهاشمي رأى، النحو هو قواعد يعرف بها أحوال أواخر الكلمات العربية التي حصلت بتركيب بعضها مع بعض من إعراب وبناء وما يتبعهما.^٥

٣. قال علي رضا، النحو هو علم من علوم العربية تعرف بها أحوال الكلمات العربية من حيث الإعراب والبناء وما يعرض لها من أحوال في حال تركيبها وعلاقتها بغيرها من الكلمات.^٦

بناء على التعريفات السابقة يظهر أن الحدود في النحو كلها متقاربة، ويمكن تلخيصها بأنه: قواعد يعرف بها أحوال الكلمات العربية بعد أن كانت مركبة جملاً، وكيف ضبط أواخرها وإعرابها ووظيفتها في الجملة. ومن هذا التعريف يظهر أن النحو يتولى على مباحث هامة في تركيب الجملة العربية وهي :

١. المبحث عن أحوال الإعراب والبناء وما يتعلق بهما.

٢. المبحث عن أحوال الجملة العربية.

٣. المبحث عن وظيفة الكلمات داخل الجملة.

يتضح مما سبق أن موضوع النحو هو كلام العرب نفسه من حيث ما تعرض الكلمات في حال تركيبها، فيعرف به المعاني الوظيفية النحوية الخاصة، كالفعل والفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر والنعته والمنعوت والحال وصاحب الحال والصلة والموصول وما إلى ذلك. ويعرف به أحوال أركان الجملة من تقديم وتأخير أو ذكر أو حذف أو إضمار أو إظهار وهلم جرا.

ومما ينبغي معرفته أن الكلمات العربية حالتان، حالة الأفراد وحالة التركيب. فالبحث عنها وهي مفردة من حيث ما يعرض لها من تصريف وإعلال وإدغام وإبدال وما يجب أن تكون عليه بنية الكلمة قبل انتظامها في الجملة، هو موضوع علم الصرف. والبحث عنها وهي مركبة من حيث ما يكون أواخرها على ما يقتضيه منهج العرب في كلامهم من رفع ونصب وجر وجزم أو لزوم أواخرها على حالة واحدة هو موضوع علم النحو.

النحو والصرف كلاهما بحث نحوي في النحو القديم. كما رأى ذلك مصطفى الغلاييني بقوله : وقد كان الصرف قديماً جزءاً من علم النحو. وكان يعرف النحو بأنه علم تعرف به أحوال الكلمات العربية مفردة ومركبة.^٧ لعل النحاة القدامى يشعرون بعسر التفريق بين دراسة النحو ودراسة الصرف، فجعلوا كعلم واحد وهو النحو. وذلك لأن التركيب النحوي حيث يتألف من الكلمات المركبة لا يدرك معناه إلا وقد سبقه معنى الكلمات حالة أفرادها، وهي بحث صرفي. والصرف يستعين في ذلك بالأصوات، ثم تضاف العانصر الصوتية إلى النحو باعتبارها عناصر صرفية. فما أصوب ما قدمه تمام حسن حين قسم ما فعله النحاة في درسهم المعنى التحليلي الوظيفي إلى ثلاث طبقات، وهي :^٨

^٥ . أحمد الهاشمي. القواعد الأساسية للغة العربية (جاكرتا : ديناميك بركة اوتاما) ص ٧

^٦ . علي رضا. المرجع في اللغة العربية (دون المكتبة والسنة) ص ٩

^٧ . الغلاييني. جامع الدروس. ج ١. ص ٩

^٨ . تمام حسان. اللغة العربية معناها ومبناها (مصر : الهيئة المصرية العامة، ١٩٧٩ م) ص ١٥

١. دراسة الأصوات العربية، وقد فصل النحاة القول في وصف مخارجها وصفاتها فرادي، ثم تناولوا بالدراسة ما رأوه منها داخلا في حين الإدغام كما فهموه.
 ٢. دراسة الصرف التي كانوا فيها بالأصول والزوائد وبيان المشتق والجامد وتحديد اشكال الصيغ وحصر اللواحق وأماكن زياداتها، ثم ما يلحق الصيغ من إعلال أو إبدال أو حذف.
 ٣. دراسة النحو، قد حاولوا فيها تقسيم الكلام وبيان علامات كل قسم، ثم كشفوا عن المعرب والمبني من هذه الأقسام وشرعوا بعد ذلك في بيان الأبواب النحوية في داخل الجملة وما تمتاز به كل باب من علامات يعرف بها وبينوا بعض المعاني الوظيفية التي تؤديها العناصر اللغوية، كالتذكير والتأنيث والتعريف والتنكير والإفراد والتنثنية والجمع والتكلم والحضور والغيبة وكالصرف وعدمه والعلامات الإعرابية وهلم جرا.
- ثم بعد أن تعينت موادها ومواضعها في الدراسة، إخرج النحاة الصرف من مباحث علم النحو وجعلوه علما مستقلا منه، ولو كانت دراسة النحو لا تأمن دائما من اللبس بدراسة الصرف، لأن النحو يدرس الكلمات العربية بعد انتظامها في الجملة والصرف يدرسها قبل انتظامها فيها. والجملة لا يتصور وجودها إلا مؤلفة من المفردات التي هي مباحث الصرف. فأمر طبيعي إذا جاءت متون القواعد مشتملة على مزيج من هذا أو ذاك يصعب معه إعطاء ما للنحو وللنحو وما للصرف للصرف.
- والصرف على وجه أخص يبحث عن صيغ الكلمات العربية من حيث دراسة الألفاظ لا يظهر ما في حروفها من إصالة أو زيادة أو حذف أو إبدال أو صحة أو إعلال أو قلب أو نقل أو إدغام أو تحويل الكلمة إلى أبنية مختلفة لأداء ضروب المعاني.^٩
- مما تقدم ذكره يظهر أن هناك فرقا بين مباحث النحو والصرف. فالصرف تكون مباحثه في الكلمات المفردة قبل انتظامها في الجملة. وذلك في الأسماء المتمكنة والأفعال المتصرفة، لا الحروف وما يشبه الحروف ولا الأفعال الجامدة. أما النحو فمباحثه الكلمات العربية بعد انتظامها في الجملة من تغيير أو آخرها حسب ما يقتضيه منهج العرب في كلامهم من رفع أو نصب أو جر أو جزم أو بقاء على حالة واحدة. إذ أن الصرف يتوقف بحثه حول تغيير أبنية الكلمات والنحو يتوقف بحثه حول تغيير أواخر الكلمات.
- أما التصريف فهو تحويل الأصل الواحد إلى أمثلة مختلفة لمعان مقصودة لا تحصل إلا بها كاسم الفاعل والمفعول واسم التفضيل والتنثنية والجمع وغير ذلك،^{١٠} والتصريف بغرضه المعنوي ينقسم إلى قسمين وهما الاصطلاحي واللغوي.

^٩عزيزة فوال بابتي. المعجم المفصل في النحو العربي. ج ١ (لبنان : دار الكتب العلمية. ١٩٩١) ط ١. ص ٥٧٣

^{١٠} أحمد الحملاوي. شذا العرف في فن الصرف (مصر : مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٧) ط ١٢. ص ٩

ج. اللغة العربية قبل نشأة النحو

عاشت اللغة العربية في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام عيشة قوية مع أنه ليست لها قواعد وقوانين احتفظ بها العرب عن الخطاء في النطق والقراءة. وذلك لأن العرب يتكلمون بلغتهم قائمة على الفطرة السليمة والسليقة المستقيمة، فلا يحتاجون إلى القواعد والقوانين. وإن قواعدهم للغتهم فطرة مورثة من آبائهم جيلاً بعد جيل وحافظوها في نفوسهم. ولا تزال هذه اللغة كحالتها حتى جاء عصر الأموي وفسأ اللحن فشوا لا تسلم عنه الخلقاء والخواص. وأنه لا يقف عند ضبط أواخر الكلمات فحسب، بل يتعداها إلى الأساليب ومخارج الحروف وما إلى ذلك مما يتعلق بأمر اللغة. وإنه يشتد اشتهاً في الحواضر والمدن. وأما البادية فقد بقيت اللغة خالصة حتى آخر القرن الرابع.^{١١}

جرى هذا اللحن حتى يسوق العرب في حاجة ماسة إلى وضع القواعد والقوانين للغتهم تسلم بها لغتهم من الانحراف والاضطراب.

والبحث في نشأة قواعد اللغة العربية يعتبر من أصعب البحوث فيه وذلك لأسباب منها : لأن هذا العلم قديم النشأة، وإن الروايات التي تحكى عن هذه النشأة كثيراً ما متضاربة، أن تحقيق صحة الروايات ليس ميسوراً، لعدم وجود الضوابط له مثل ما وجد في تحقيق الأحاديث النبوية.

ولعل أول ما يساعدنا في بحث عن أسباب وضع النحو، هو أن يمهّد بإيراد النصوص التي وصلت إلينا تحكى عن كل ما يمس نشأة النحو :

١. روى بعض الرواة أن رسول الله (ص.م) سمع رجلاً يلحن في كلامه فقال : أُرشدوا أحاكم فإنه قد ضل.^{١٢}

٢. روى أن أحد ولاية عمر بن الخطاب (وهو أبو موسى الأشعري والي البصرة) كتب إليه كتاباً ذكر فيه كاتبه من أبو موسى الأشعري، فكتب عمر لأبي موسى أن قنع كاتبك سوطاً.^{١٣}

٣. روى أنه قدم أعرابي في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : من يقرئني شيئاً مما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم. فأقرأ رجل سورة البراءة فقال (أن الله برئ من المشركين ورسوله) بالجر. فقال الأعرابي : أو قد برئ الله من رسوله ؟ إن يكن الله بريئاً من رسوله فأنا أبرأ منه. فبلغ عمر عليه السلام مقالة الأعرابي فدعاه فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابي، فقال : كيف هي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : (أن الله برئ من المشركين ورسوله) بالضم. فقال الأعرابي : وأنا والله أبرأ ممن برئ الله ورسوله منهم. فأمر عمر أن لا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة. وأمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع النحو.^{١٤}

^{١١} . احمد حسن الزيات. تاريخ الأدب العربي (دون الطباعة) ط ٢٥. ص ٢٠٥

^{١٢} . شوقي ضيف. المدارس النحوية (القاهرة : دار المعارف. ١٩٨٢). ص ١١

^{١٣} . ابن جني. الخصائص. ج ٢ (بيروت : دار الكتب) ص ٨

^{١٤} . عبد العال سالم مكرم. القرآن وأثره في الدراسات النحوية (مصرى : دار المعارف) ص ٥٠

٤. روى عن ابن عمر. أنه قال : مرّ عمر على قوم قد رموا رشقا فأخطأوا. فقال : ما اسوأ رميكم، فقالوا نحن متعلمين، يقولون بالنصب والجر مع أن حقه الرفع. فقال : لحنكم أشد علي من رميكم، سمعت رسول الله (ص.م) يقول : رحم الله امرأً أصلح من لسانه.^{١٥}

٥. روى عن أبي الأسود الدؤلي أنه دخل على علي بن أبي طالب وهو بالعراق. فراه مطرقاً مفكراً، فسأله فيم يفكر ؟ فقال له : سمعت ببلدكم لحناً، فأردت أن أصنع كتاباً في أصول العربية، وأتاه بعد أيام، فألقى إليه صحيفة فيها (بسم الله الرحمن الرحيم. الكلام كله اسم وفعل وحرف. فلا اسم ما انبأ عن المسمى، والفعل ما انبأ عن حركة المسمى، والحرف ما انبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل). ثم قال له : اعلم أن الأشياء ثلاثة ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر وتمضى هذه الرواية فنذكر أن أبا الأسود جمع لعل على أشياء وعرضها عليه، وكان منها حروف النصب، إن و أن وليت ولعل وكأن ولم يذكر أبو الأسود لكنّ. فقال له علي لم تركتها ؟ فقال : لم احسبها منها، فقال : بل هي منها، فزدها فيها.^{١٦}

من النصوص التي اوردناها سابقا عرفنا أن ثمة أمرين أساسيين دفعا إلى وضع علم النحو، هما الحرص على سلامة القرآن من التحريف، وصيانة اللغة العربية من الاضطراب والفساد. ويبدو أن هذا الاهتمام باللغة العربية كما فهمنا من النصوص السابقة كان قد ظهر مبكرا جدا لأنه بدأ منذ عصر الرسول (ص.م) وذلك عند ما سمع رجلا يلحن في كلامه فقال : أرشدوا أحاكم فإنه قد ضل.

ثم إن الاهتمام هذا كان كبيرا نظرا إلى استعمال عبارة "قد ضل" في كلام الرسول، وعبارة "قع كتابك سوطاً"، كما عرفنا من لهجة عمر بن الخطاب، وفي قوله : لحنكم اشد علي من رميكم. فهذه العبارات الثلاث الشديديات اللهجات لا يتصور ظهورها على لسان كل من رسول الله وعمر بن الخطاب، إلا إذا كان اللحن يعتبر أمراً عظيماً.

واعتبار اللحن خطأ جسيماً في نظرهما لا يستدعي العجب لعلاقته بالقرآن، لأن القرآن الكريم نزل باللغة العربية. فأى لحن تسرب إلى اللغة العربية فأثره لا بد أن يحدث في القرآن قريباً أو بعيداً، خاصة أن رقعة الدولة الإسلامية لم تعد محصورة في نطاق الجزيرة العربية، ومعتنقوا الإسلام لم يعودوا من الجنس العربي فقط، بل دخل فيه أجناس عدة لا عهد من قبل باللغة العربية.

انطلاقاً من هذا كان اللحن مع ما وراءه من إنحراف كلام رب العالمين وفساد لغة العرب وسقوط مراتبهم يعتبر أمراً شديداً. ولحفظ سلامة لغة القرآن الكريم واللغة العربية من الفساد والاضطراب كان نشأة فن جديد حيث يحوى القواعد العربية، تعتبر حاجة ماسة وعذراً شرعياً.

^{١٥} احمد زيني دحلان. شرح مختصر جدا على متن الأجرومية (سورابايا : المكتبة السقافية) ص ٣

^{١٦} شوقي ضيف. المدارس النحوية. ص ١٣ - ١٤

ومن أهم الأسباب في نشأته وجود اللحن في قراءة آيات الذكر الحكيم. بدأ انتشار اللحن بعد الفتوحات الإسلامية في البلاد المجاورة بالبلاد العربية، مثل مصر والشام والعراق وفارس. فتلك الفتوحات تؤدي إلى أن يختلط مسلموا العرب بالأعاجم. فأخذ الأعاجم يتكلمون باللغة العربية في البلاد المفتوحة حيث يتكلم الأعاجم بها شيئاً فشيئاً حسب قدرتهم حتى غلبت ما عداها. ومن ناحية أخرى فسدت فصاحة اللغة وظهر اللحن عند نطق تلك اللغة وعند قراءة القرآن الكريم.

ومن البلاد المفتوحة، فالعراق أبرزها في اختراع العلوم وتدوينها. وكان اسبق الأقاليم مدينة وحضارة، حيث تعاقبت عليها الأمم المتحضرة من نحو ثلاثين قرناً قبل الميلاد. فالبابليون والأشوريون والكلدانيون والفرس واليونان، كل هؤلاء أنشأوا في العراق مما لك تختلف صبغتها، وكانت مدينتهم منارا يلقى اشعته على ما حوله من البلدان.^{١٧}

ولما فتح المسلمون العراق ودان أهلها بالإسلام شعروا بالحاجة إلى تناول لغة دينهم العربية، ونشأ من ذلك افتقارهم إلى علم يوصلهم إلى تناول تلك اللغة. وعلى هذا فإن حاجتهم إلى النحو أشد من عرب البادية، لأنهم يعرفون لغتهم ويتكلمون بها صحيحة على سليقتهم. فإذا كان الباعث على ظهور النحو مثل ما ذكر سابقاً، كان طبيعياً أن يكون منشأة بلداً أعجمياً، ولا أفضل في ذلك من العراق.

هكذا كان الإسلام والفتح سبباً في انتشار اللغة العربية مهما قد أتت بها أشياء لها خطرهما، ومنها اختلاط العرب بالأعاجم كما مرّ ذكره. ونتيجة من هذا الاختلاط أخذ الفساد يدبّ في التكلم بين العرب والعجم وظهر اللحن فيه. فوعى المسلمون وبادروا إلى اتخاذ الوسائل لحفظ لغتهم العربية ودرء خطرهما. فظهر في أرض العراق اهتمام عظيم في وضع علم النحو حيث يحفظ به سلامة اللغة العربية من الفساد والاضطراب. وإن منشأ هذا العلم الشريف في مدينة البصرة التي تعد من أهم المدن في العراق.

كانت البصرة تقع على ممر عدة طرق تجارية مهمة، ولذلك أصبحت مركزاً لحياة اقتصادية نشيطة واسعة، وأغلب سكانها من القبائل العربية التي كانت تقيم في شرقي الجزيرة العربية وبخاصة منطقة الخليج الفارسي. لم تكن البصرة في عزلة من الأعاجم والموالي الذين بدأوا يكتسحون الحواضر الإسلامية بسبب الفتوح، فقد جاء عبيد الله بن زياد بألفين من الإتراك الذين أسرهم في حملاته في أواسط آسيا، فاسكنهم البصرة وجعلهم في العطاء ومنحهم في الأرزاق.^{١٨}

من هنا ظهر اللحن، واستبدت الخاصة والعامة، مما جعل الولاة والخلفاء يفكرون في وضع الأسس التي تصون اللغة وتحفظها من عبث العابثين. وكان من أهم هذه الأسس الإشتغال بالدراسة النحوية ووضع القواعد. وإن علماء البصرة هم الذين احتضنوا الدراسة النحوية لأنها في بلدهم نشأت وفي مدينتهم تكونت وعلى يدهم أخذت تنمو شيئاً فشيئاً وتطور حيناً بعد حين حتى صار علما على صورته النهائية.

^{١٧} أحمد أمين. فجر الإسلام (سنقافورا : سليمان مرعي. ١٩٦٥) ط ١٠. ص ١٧٩

^{١٨} صالح أحمد العلي. التنظيمات الاجتماعية في البصرة (بغداد : مطبعة المعارف، ١٩٥٣ م) ص ٧٢

وإن ثمة أسبابا دعت إلى ظهور علم النحو في مدينة البصرة:^{١٩}

١. إن العرب النازحين إليها من القبائل العريقة في اللغة العربية الفصحى، وأنهم استطابوها واتخذوها دارهم. ولكنهم في نفس الوقت فقدوا فصاحتهم نتيجة من الإختلاط بالأعاجم فيها، فقاموا بوضع علم يردون به فصاحتهم. طبعاً أنهم يدافعون فصاحة لغتهم نتيجة من اختلاط بالأعاجم فيها، فقاموا بوضع العلم لحرص عن فصاحتهم.

٢. كان في البصرة "المريد" الذي اتخذه العرب سوقاً. وصارت هذه السوق في الإسلام صورة معدلة لعكاظ الجاهلية. فكانت فيه النوادي الأدبية والمجامع الثقافية. فقد كان الشعراء يؤمنونه ومعهم رواثهم، وكذلك النحويون يسمعون فيه ما يصحح قواعدهم ويؤيد مذاهبهم.

٣. إن موقع البصرة الجغرافي على طرق البادية مما يلي العراق وأدنى المدن إلى العرب إلا قحاح الذين لم تلوث لغتهم بعامية الإمصا. والأعراب تفد إليها من بوادي غربا والبحرين جنوبا.

وهذه كلها مما يسر علماء البصرة حينما قاموا بوضع القواعد النحوية، وإنهم وجدوا ما فيها ما لم يوجد في غيرها حتى أنه ليس مستغرباً إذا كانت البصرة أول مدينة عنيت بعلم النحو، ومن هنا انطلقت حركة نحوية. وهذا العلم لم تطل مدة حضائته كغيره من العلوم المختلفة، ولكن مشى واكتمل بخطوات واسعة، لأن العرب يشعرون بالحاجة إليه. وما أن استهل العصر العباسي إلا وهو علم يدرس في البصرة ثم الكوفة وغيرها من المدن الإسلامية.

د. أول واضع النحو العربي

فتح المسلمون البصرة سنة الخامسة العشرة للهجرة، في أيام خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وبعد الفتوحات انتشرت اللغة العربية جنبا بجنب مع انتشار الإسلام، فذهبت أينما ذهب وانتشرت أينما انتشر. فتلك الفتوحات تؤدي إلى أن يحتلط مسلموا العرب بسكانها الأصليين، ونشأ من هذا الإختلاط بذور اللحن في ألسنة بعض متكلميها. فاحتاج العرب إلى علم حيث يحفظ سلامة لغتهم من الفساد، ويسمى فيما بعد بعلم النحو.

إن ثمة خلافاً حول نشأة علم النحو، منه ما يتعلق بأول من وضعه، وهذا الخلاف كما نجده في العصر الحاضر نجده أيضاً في العصر القديم.

١. الخلاف القديم

إن الخلاف حول أول من وضع النحو في العصر القديم نستطيع أن نجده في الكتاب أخبار النحويين واللغويين السيراني، المتوفى ٣٦٨ هـ حيث ذكر فيه ثلاثة آراء، حول واضع علم النحو.^{٢٠}

^{١٩} محمد الطنطوي. نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة (دون المكتبة والسنة) ط ٢. ص ١٠٦ - ١٠٩

^{٢٠} السيراني. أخبار النحويين البصريين (بيروت: المطبعة الكاثوليكية. ١٩٣٧) ص ١٧ - ٢٢

أ) الرأي الأول لعاصم الذي ذهب إلى أن واضع علم النحو هو أبو الأسود الدؤلي، وقد قال عاصم : أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلي بأمر زياد بن أبيه. وكان حينئذ واليا على البصرة. فقد جاء أبو الأسود الدؤلي ذات مرة إلى زياد بالبصرة، فقال : أرى العرب قد خالطت الأعاجم وتغيرت ألسنتهم افتأذن لي أن أضع للعرب كلاما يعرفون أو يقيمون به كلامهم. قال : لا، إلى أن جاء رجل ذات يوم إلى زياد فقال : اصلح الله الأمير توفي أبانا وترك بنونا، فقال زياد : توفي أبانا وترك بنونا ؟ ادع لي أبا الأسود، فقال : ضع للناس الذي نهيتهك أن تضع لهم.

ب) الرأي الثاني لخالد الخدء الذي ذهب إلى أن واضع علم النحو هو نصر بن عاصم. وقد قال خالد الخدء : سألت نصر بن عاصم، وهو أول من وضع العربية : كيف تقرأها ؟ قال : قل هو الله أحد الله الصمد، لم ينون. قال : فأخبرته أن عروة ينون، فقال بئسما قال وهو للبئس أهل.

ج) الرأي الثالث لأبي النضر الذي ذهب إلى أن عبد الرحمن بن هرمز هو أول من وضع النحو حيث روى عنه ابن الهيعة أنه قال : كان عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية، وكان أعلم الناس بأنساب قريش واحد القراء.

٢. الخلاف في العصر الحديث

وأما في عصرنا الحاضر فالخلاف في هذا الأمر فليس بأقل من القديم شأننا، ولمعرفة هذا الخلاف يمكن الرجوع إلى الكتب التالية، وهي ضحى الإسلام لأحمد أمين، والمدارس النحوية لشوقي ضيف، وأراء في اللغة لأحمد عبد الغفور عطار.

لعل أول من أثار هذه القضية في العصر الحديث إبراهيم مصطفى حين ألقى بحثه تحت عنوان (أول من وضع النحو) في مؤتمر المستشرقين عام ١٩٤٨ م. والذي رأى أنه شك في أن أبا الأسود الدؤلي أول من وضع النحو. وقد ورد هذا الكلام في كتاب "أراء في اللغة" لأحمد عبد الغفور عطار السابق ذكره، كما ورد فيه أيضا أن عبد الوهاب حمودة ردّ عليه بأن الادلة التي ساقها إبراهيم مصطفى لا تقوم على أسس علمية.^{٢١}

أما أحمد أمين فقد رفض الرأي القائل أن عليا هو أول من وضع علم النحو وفقا للروايات التي تذكر أن عليا كرم الله وجهه أعد رقعة دفعها إلى أبي الأسود الدؤلي وفيها : الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالاسم ما انبأ عن المسمى والفعل ما انبأ به والحرف ما افاد معنى، وطلب أن ينحو هذا النحو واعلمه أن الاسم ثلاثة طاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر. وقد شك أحمد أمين وكذلك شوقي ضيف في صحة هذه

^{٢١} أحمد عبد الغفور عطار. أراء في اللغة (جدة : المؤسسة العربية للطباعة. ١٩٦٤) ط ٠١ ص ٦٠

الروايات، لأن الظروف السياسية المضطربة طوال عهده بالخلافة لا تسمح له بالفكر في مثل هذه المسألة وزعما أنها من اختلاف الشيعة.

وإذا كان العالمان الفضلان أحمد أمين وشوقي ضيف قد اتفقا على رفض الرأي القائل إن عليا هو الواضع لعلم النحو إلا أنهما اختلفا بعد ذلك. فذهب أحمد أمين إلى أن أبا الأسود الدؤلي هو أول من وضع النحو، غير أن النحو الذي وضعه أبو الأسود كان نحوا ساذجا متمشيا مع قانون النشوء والارتقاء. وهو على صورة ابتكاره شكل المصحف وذلك حينما أخذ صبغا يخالف لون المداد الذي كتب به المصحف ووضع على الحرف المفتوح نقطة فوقه والمكسور نقطة تحته والمضموم بين يدي الحرف والمنون نقطتين وترك الساكن. وقد رأى أنها هي الخطوة الأولى في سبيل النحو، فجاء بعده من أراد أن يفهم النحو على المعنى الدقيق فاخترع تقسيم الكلمات إلى اسم وفعل وحرف.^{٢٢}

أما شوقي ضيف فقد رأى أن أول من وضع علم النحو بالمعنى الدقيق هو عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي لأن جهود أبي الأسود وتلاميذه إنما تقف عند أول نقط يجر أواخر الكلمات في القرآن، وأول نقط للحروف المعجمة في المصاحف تميزها لها من الحروف المهملة.^{٢٣}

والذي ذهب إلى أن عليا هو واضع علم النحو هو أحمد عبد الغفور عطار. وقد سلم عطار بالقول أن الكوفة لم تكن خالية من اليونان والسرمان ليتوصل بذلك إلى القول بأنه ليس بمنوع عقلا أو منطقا إلا يضع الإمام الخطوط الأولى للنحو استنباطا وتأسيا. ومن الجائز عقلا أن لا يكون الإهتمام إلى النحو البدائي الساذج كتقسيم الكلمة منظورا فيه إلى النحو في اللغات الأخرى التي كان اصحابها بين يدي الإمام علي طائفة كبيرة فيها أصحاب علم وفقه ودراية بنحو لغاتهم. وكانت الضرورة ملحة في عصر الإمام علي، إذ دخلوا في الإسلام من ليس بعرب إلى وضع نظام يحفظ لسان الأعجمي من زلل في آيات الله. وكان الخليفة إمام المسلمين وقائدهم الأعلى وواضع خططهم الحربية وفقههم وعالمهم وقاضيههم ومفتيهم وخازن أموالهم وراعيهم ووزير اقتصادهم وتموينهم ومعارفهم وتجارهم ورئيس أركان حربهم. وكان الإمام علي في كل هذا بارزا موفقا، ومادام الأمر كذلك فلا مانع عقلا ولا منطقا أن يكون الخليفة الإمام أشد الناس شعورا بالحاجة إلى النظام الذي يحفظ القرآن من الخلل في تقويم عباراته وقراءة كلماته قراءة صحيحة.^{٢٤}

والنتيجة من هذا أن الإمام عليا هو الذي وضع الخطوط البدائية الأولى للنحو العربي. وأما دور أبي الأسود الدؤلي فلم يتعد إلا أن أضاف إلى أثر الإمام ما زاد من عمقه وشيوعه لكن في محيط ضعيف. إذا لا حظنا ملاحظة دقيقة الأراء المختلفة في أول من وضع النحو عرفنا أن هذا البحث يعتبر من البحوث الصعبة، لأن هذا العلم نشأ منذ عهد قديم، والروايات التي تحكى عن هذه النشأة كانت متعددة ويختلف بعضها

^{٢٢} أحمد أمين. ضحى الإسلام. ج ٢ (لجنة التأليف والترجمة والنشر. ١٩٣٨)

^{٢٣} شوقي ضيف. المدارس النحوية (القاهرة: دار المعارف. ١٩٧٦)

^{٢٤} عطار. أراء في اللغة. ص ٦٣

بعض. ولتحقيق صحة الروايات فليس بسهل لعدم وجود الضوابط له. مهما كانت كذلك لو اهتمنا إلى الأسماء المروية سنعرف أن كل واحد منها له فضله في بناء علم النحو في زمانه.

هـ. الاستنباطات

بعد أن انتهى الكاتب من البحث فيما يتعلق بنشأة النحو العربي، يرى أن يقدم تلخيصا موجزا في الاستنباطات الآتية :

١. إن اهتمام بسلامة اللغة العربية قد ظهر منذ عصر صدر الإسلام ويكون فيما بعد سببا لنشأة علم النحو. والنحو من ناحية المفهوم هو قواعد يعرف بها أحوال الكلمات العربية بعد إن كانت مركبة جملا، وكيف ضبط أواخرها وإعرابها ووظيفتها في الجملة.
٢. كانت اللغة العربية قبل نشأة النحو عاشت عيشة قوية، لأن العرب عندئذ يتكلمون بلغتهم قائمة على الفطرة السليمة والسليقة المستقيمة، فلم يحتاجوا إلى القواعد احتفظوا بها عن الخطأ في النطق.
٣. إن الغرض الأساسي لوضع علم النحو في أول نشأته يدور حول الأمرين هما حفظ سلامة القرآن من التحريف وصيانة اللغة العربية من الاضطراب والفساد. اختلف العلماء في أول من وضع علم النحو، غير أن معظم المؤرخين يرجحون أبا الأسود الدؤلي بإرشاد علي بن أبي طالب.

قائمة المراجع

- أمين، أحمد. ١٩٨٥. فجر الإسلام. سنقافورا: سليمان مرعي.
- _____ . ١٩٣٩. ضحى الاسلام. لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- أنيس، إبراهيم. ١٩٧٢. معجم الوسيط. مصر: دار المعارف.
- بابتي، عزيزة فوال. ١٩٩١. المعجم المفصل في النحو العربي. لبنان: دار الكتب العلمية.
- البيجورى، إبراهيم. فتح رب البرية. سمارانج: مكتبة اوساها كلواركا.
- جني، ابن. دون السنة. الخصائص. بيروت: دار الكتب.
- حسان، تمام. ١٩٧٩. اللغة العربية معناها ومبناها. مصر: الهيئة المصرية العامة.
- الحملوى، أحمد. ١٩٥٧. شذا العرف في فن الصرف. مصري: مصطفى البابي الحلبي.
- دحلان، احمد زيني. دون السنة. شرح مختصر جدا على متن الأجرومية. سورابايا: المكتبة الثقافة.
- رضا، علي. دون السنة. المرجع في اللغة العربية. دون المطبعة.

- الزيات، أحمد حسن. دون السنة. تاريخ الأدب العربي. دون المطبعة.
- السيرافي. ١٩٣٧. أخبار النحويين البصريين. بيروت: المطبعة الكاثوليكية.
- ضيف، سوقي. ١٩٨٢. المدارس النحوية. القاهرة: دار المعارف.
- الطنطاوي، محمد. دون السنة. نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة. دون المطبعة.
- العلي، صالح أحمد. ١٩٥٣. التنظيمات الاجتماعية في البصرة. بغداد: مطبعة المعارف.
- عطار، عبد الغفور أحمد. ١٩٦٤. آراء في اللغة. جدة: المؤسسة العربية للطباعة.
- الغلاييني، مصطفى. ١٩٨٤. جامع الدروس العربية. بيروت: المكتبة العصرية.
- مكرم، عبد العال سالم. دون السنة. القرآن وأثره في الدراسات النحوية. مصر: دار المعارف.
- الهاشمي، أحمد. دون السنة. القواعد الأساسية للغة العربية. جاكرتا: ديناميكا بركة أوتاما.